

ان منهج التعلم الجماعي للغات الاجنبية انما هو تجربة جماعية لدرس اللغات الاجنبية مهما كان نوعها . ولكي تكون هذه التجربة التعليمية ناجحة بشكل فعال فانه يجب ان تسير وفق المبادئ التالية:

(1) الاطمئنان النفسى :

ان المبدأ الاساسى الاول و العملية التعليمية هو مبدأ الاطمئنان النفسى Security كما يجب عالم اللسان النفسى كورن ان يصطنع عليه . فالطالب الذى يلتحق بقاعة الدرس لأول مرة انما تخامره مخاوف عديدة واسئلة متنوعة تذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما يلى :

من هو المعلم ؟ من هم هؤلاء الطلاب الذين يجلسون معى فى قاعة الدرس ؟ بل ما هو مستواهم الثقافى والاجتماعى ؟ ما هى درجة معرفتهم باللغة الجديدة التى ينبغى تعلمها ؟ هل هم اكثر معرفة منى بها ؟ ما هو السلوك الذى يجب على اتباعه لكى اناال رضاهم وقبولهم ؟ هل ساكون قادرا على نطق الاصوات الجديدة لهذه اللغة دون اثارتهم لحسد الضحك والاستهزاء ؟

والواقع ينبغى على المعلم المستشار ان يخفف من وطأة هذه الاسئلة التى تخامر المتعلم الطالب . وهذا بالطبع لا يعنى تبيح العملية التعليمية بحيث تصبح مواساة المتعلم تشبه مواساة الام لرضيعها . انما فقط عملية تفهيمى لقااة على عاتق المعلم لكى يتفهم مشاعر النقص والتفهم التى يفرضها الجو التعللى الجديد على الطالب (7) .

ان النتيجة الطبيعية لهذا التفهم هو احساس المتعلم بان مخلوفه هى فى الحقيقة مخاوف نسبية يعيشها معظم المتعلمين الآخرين . وهكذا تراه عندها يجرؤ على المبادرة اللغوية ويجازف بمساهمته اللغوية المتواضعة فى امن نفسى واطمئنان فكرى .

والحقيقة ان هذه المساهمة التى يبديها المتعلم انما هى استثمار لغوى Linguistic Investment يقوم به الطالب من خلال مساعدة المجموعة له وتحت رعاية المعلم المستشار .

هذا الاستثمار اللغوى يتمثل عادة فى محادثة قصيرة او حوار بسيط تولد كلماته وجملته من المتعلمين انفسهم . وهكذا نانا سنرى بعد ذلك المتعلم يشق لنفسه طريقا مستقلا بحيث يصبح فيه نموذجا

لغويا حقيقيا يعكس فيه كفاءته التبليغية الناشئة (8) هذا الاستثمار اللغوى يتطلب من كل طالب ان يضم نفسه ضما ايجابيا للمجموعة المتعلمة بحيث يستطيع بعدها استيعاب ما يقوله الآخرون استيعابا منفعلا وفاعلا فى الوقت نفسه .

(2) التأمل اللغوى والانعكاس النفسى :

ان المبدأ الاساسى الثانى هو التأمل الفاعل عند المتعلم والانعكاس المنفعل عند المعلم . وقد سمى كورن هذه العملية بالتأمل والانعكاس اللغوى . وقد تصد كورن من هذه التسمية ثلاثة اشياء :

أ - تأمل المتعلم وتفحصه لما كان قد كتب على اسبورة بشكل ضامته وذلك لكى يتمكن من استيعاب المادة اللغوية المتولدة عن المجموعة المتعلمة بحيث يمكن له ان يجعل تلك المادة اللغوية ملكا له وذلك بشكل تدريجى .

ب - ينبغى على المعلم المستشار ان يكون بمثابة المرآة التى يمكن ان تنعكس فيها مساهمة الطالب الكلامية فى اللغة الاجنبية . وذلك بان يعيد مثلا المعلم صياغة ما قاله الطالب واصلاح خطئه دون ان يشعر ذلك الطالب بان ذلك للاصلاح اللغوى انما هو موجه اليه بشكل مباشر . ولذلك يجب ان يكون أسلوب المعلم فى هذا الدور الانعكاسى اسلوبا غير مباشر خال من اى لشارة تقييمية قد تسبب له شعورا بنقص الشخصية امام زملائه .

ج - ينبغى على المعلم ان يخصص مدة زمنية محددة يسأل فيها كل طالب ان يشارك اقترانه بكل ما يمكن ان يخالج نفسه من خواطر او تساؤلات ترتبط بتجربته اللغوية فى تلك المرحلة التعليمية وهكذا فان اى تعليق يبدر من اى طالب متعلم انما يصبح يعد تفهم المعلم له ملك المجموعة كلها . وهكذا فان كل طالب فى المجموعة يدرك بان ما كان قد اعترض سبيله من صعوبات لغوية او ما كان قد استنتجه من قواعد تخص بنية اللغة المتعلمة لئلا يتقاسمه افراد المجموعة كلها . وقد يتم المعلم خلال هذه الفترة الاستثمارية الجماعية بايضاح بعض النقاط الثورية او الصرفية المهمة دون اسهاب مفصل وذلك حتى لا تخط الامور على الطلبة .

(3) التخزين اللغوى :

أما تيلور Taylor فقد حاول من ناحيته أن يبرهن أن فشل المتعلم في اكتساب اللغة الأجنبية وتعلمها في النطاق المدرسي إنما يرجع إلى إهمال المعلم للفاعليات النفسية التي تنهج داخل المتعلم . وقد أثبت جاردرن Gardner ولايبيرت Lambert وستيفك Stevick بعد تجارب علمية عديدة أن الدعم النفسي والعاطفي من المعلم تجاه طالبه وأن إدراك الفاعليات والمتغيرات العاطفية التي تتخالج المتعلمين ليس ضرورياً فحسب لاكتساب لغة أجنبية ما بل هو ضروري أيضاً للتغلب على الوجوه السلبية لهذه الفاعليات والمتغيرات العاطفية التي يفوق تأثيرها العوامل الأخرى كعامل ذكاء الطالب وقدرته اللفظية ومؤملاته الاجتماعية .

4 - منهج التعلم الجماعي للغات : التجربة العربية :

لن ادعى أن التجربة العربية التي أجريتها هي تطبيق نموذجي مثالي لهذا المنهج التعليمي بل هي مجرد وصف لتجربة شخصية كانت قد دامت يومين وقد جرت أحداثها بين مجموعة من الطلبة الأمريكيين الذين يبلغ عددهم اثني عشر طالبا جاءوا ليحضرُوا درسا نهديدا مكثفا للغة العربية كلفة أجنبية . وبما أنني كنت في تلك المرحلة أبحث عن القيمة التعليمية البيداغوجية لهذه الطريقة ثم صلاحيتها لتدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها فإن التجربة التالية ستكون تجربة وصفية أكثر منها تجربة تطبيقية بالمعنى العلمي الحقيقي .

(1) تمهيد :

لقد كان معظم الطلاب في هذا الملتقى من الموظفين الأمريكيين الذين يعملون في وظائف مختلفة توالى العربية وحضارتها أهمية خاصة ، وقد كانت معرفتهم للغة العربية لا تتجاوز كتابة أسماهم الشخصية أو كتابة بعض المفردات أو العبارات المختلفة . أن المهمة الأولى التي جعلتها نصب عيني هي محاولة صهر هؤلاء الأمراد ذوي الشخصيات المختلفة في بوتقة تعليمية واحدة ذات هدف واحد ألا وهو تعلم أكثر ما يمكن من العربية في وقت محدد ومكثف . كما حاولت أثناء تقديمي للغة العربية وثقافتها أن أشاطر المتعلمين تجربتي الشخصية عندما تعلت

أن هذا العامل التألمي والانعكاسي الجدلي بأوجهه الثلاثة إنما سيؤدي إلى ما اصطلاح عليه كورن بالتخزين اللغوي Retention وهو المبدأ الثالث من مبادئ التعلم الجماعي للغات . فبعد أن يشمر الطالب بالاستقرار والاطمئنان النفسي وبعد أن يبدي مساهمته الأولية ويعمل بانتباهه وتأمله لبنية اللغة المدروسة ودلالاتها فانه يأتي دور التخزين اللغوي . أن هذا التخزين اللغوي على حد قول كورن إنما هو العملية الأخيرة لهضم المادة اللغوية المتعلمة واستيعابها استيعابا جيدا .

(4) التصنيف والتمييز اللغوي :

أن المبدأ الأخير الذي يستند عليه منهج التعلم الجماعي هو التمييز والتصنيف Discrimination فهذا يعني التعرف على مفردات الحوار وجملة وتصنيفها حسب طرق نظامية وقوانين معروفة . ويجري هذا التمييز عادة بين المتعلمين أنفسهم بعد أن ينقسموا إلى عدة فرق صغيرة الحجم . بحيث يمكن للمعلم المنتشر طوال هذا النشاط أن يستمع لما يقال حول اللغة دون أي تعليق أو تدخل شخصي . على أنه في الوقت نفسه إذا وقع اشكال أو التباس يمكن أن يخل باستنتاجات المتعلمين فانه ينبغى على المعلم أن يقوم بإزالته أو توضيحه بشكل عرضي غير مباشر ودون اطناب .

أن هذه المبادئ والمفاهيم للعملية التعليمية إنما هي بمثابة المقاييس النفسية البيداغوجي الذي يمكن له أن يساعدنا في ضبط التجربة التعليمية لجودتها دون اللجوء إلى التسرع التعليمي ، بل ينبغى التأكيد على عفوية العملية التعليمية وبساطتها .

أن المنهج الفلسفي التعليمي الذي أخذ به كورن ليس غريبا عن النتائج التي توصلت إليها البحوث الحديثة في ميدان تعلم اللغات الأجنبية واكتسابها . فكريشن Krashen مثلا حاول أن يبين أن السبب الرئيسي في فشل المتعلمين للغات الأجنبية يرجع في معظم الأحيان إلى إصرار المعلمين على التمارين الشفوية المملة المقدمة للطلبة ثم تصحيحهم المستمر للإغلاط الصوتية والنحوية والدالية . وذلك كجديل للجو التعليمي المناسب الذي يمكن أن يرفد الطلبة بالعناصر اللغوية الأولية التي يمكن تعزيزها بعد التمارين المختلفة (9) .

الإسبانية . وشاركهم أيضا الصعوبات التي كنت أواجهها آنذاك في دراستي تلك اللغة .
والواقع لقد كان غرضي الوحيد من كل ذلك هو أن أجعل الطلاب يشعرون بأننا كلنا متساوون ومتبادلون عندما نقبل على تعلم أية لغة أجنبية .

(2) الخطوة الأولى : تسجيل المحادثة :

لقد جلس الطلبة على مقاعد قريبة من بعضها بعضا بحيث كونوا حلقة متراسة ثم وضعت في وسط هذه الحلقة آلة مسجلة صغيرة الحجم مجهزة بـ « ميكروفون » يحمل في أعلاه ضاغطا صغيرا يمكننا من التحكم في سير الآلة وعملها . ثم أخذت مكاني خارج الحلقة وسألت الطلبة بأن يشرعوا في محادثة بسيطة باللغة الانكليزية . وكان من المتفق عليه انه كلما أراد طالب أن يتحدث بجملة ما أعطاني إشارة بذلك فأتقرب من هذا الطالب واقف وراءه واضعا يدي على كتفه حتى أطمئنه نفسيا ونكريا . وبعد أن يفرغ هذا الطالب من القاء جملته أو عبارته الانكليزية أعطيته المقابل العربي لها ، كلمة بكلمة وذلك بصوت هادي معتدل وعلى مسمع من الطلاب الآخرين . وكلما يسمع الطالب الكلمة العربية منى ضغط على « زر » « الميكروفون » ليسجل اعادته أو نطقه للجملة العربية ، ثم يضغط على « الزر » مرة ثانية ليتوقف عمل الآلة وذلك حتى لا يقع تسجيل لصوتي أثناء تلقيني الكلمة العربية المولية . ثم يعمل الطالب الآلة من جديد ويسجل تكرار ما استمع اليه .

وبعد أن يتم تسجيل هذه المساهمة اللغوية الأولى على هذه الوتيرة ترانى أضغط بلطف على كتف المتعلم اعلايا منى أن دوره قد انتهى وينبغى أن يترك المجال لغيره بالتحدث ، فيضع عندها « الميكروفون » ويتوقف . وبعد عشر دقائق من هذا التفاعل غير المباشر بين اللغة العربية المتعلمة وبين دارسيها حصلنا على شريط تصوير سجلت فيه أحاديث الطلبة وتكراراتهم للجلل العربية ، على الرغم من انها كانت متقطعة وذلك نتيجة توتيف آلة التسجيل بعد اعادة كل كلمة .

(3) بعض الملاحظات حول تسجيل المحادثة :

إن الهدف المنشود من اجلاس الطلبة في حلقة

متراسة هو تعزيز روح التعاون بين المتعلمين انفسهم . لذلك فاننا نرى ان المعلم المستشار يقف عادة خارج الحلقة وخلف المتعلم حتى لا يرى هذا الاخير أى إشارة تقويية ايجابية أو سلبية قد تصدر عن المعلم وتسبب في ارتباك الطالب وهو يحاول اعادة ما سمع من المعلم . كما ان وضع اليد على كتف المتعلم تعنى الدعم النفسى من المعلم لما يمیده المتعلم الطالب وهذا مما يدخل على نفسه الطمأنينة والامسن الذى سبق لنا ذكره .

إنه من خلال تجاربي الأولى كعالم فقد واجهتني بعض العقبات والصعوبات في استعمال آلة التسجيل وذلك لان معظم المتعلمين ليسوا خبيرين في استعمال (الميكروفون) والضاغط المصاحب له فينتج عن ذلك ان بعض أجزاء الجملة العربية لم تسجل أو ان صوتي قد سجل عفويا وبشكل غير مباشر . وقد لاحظت ان وجود آلة التسجيل قد يثبط من همة بعض المتعلمين الذين لا يرتاحون لسماع أصواتهم المسجلة خاصة وهم ينطقون لغة أجنبية ، ونتيجة لذلك تراهم يترددون في المبادرة اللغوية في المراحل الأولى من استعمال آلة التسجيل .

ولقد تسببت الجمل العربية الى عدة أجزاء ومقاطع حتى يسهل على الطالب اعادتها اعادة صحيحة وسليمة فاذا كانت اعادة الطالب لكل الجمل اعادة غير صحيحة فائنى لا ألح على تصحيحها مباشرة وذلك لاننى أعتقد بأن الطالب عادة يلاقي مثل هذه الاخطاء اللغوية في الحلقات التالية المخصصة للتجارين الصوتية وغيرها . كما ان التصحيح المستمر للاخطاء اللغوية وخاصة في المراحل الحساسة من العملية التعليمية قد يخل بتلقائية المحادثة وعفويتها ويضعف الطمأنينة النفسية عند المتعلم .

(4) الخطوة الثانية : التامل اللغوى :

1 - الاستماع الى الشريط المسجل :

لقد استمعنا الى الشريط المسجل مرتين ، مرة دون انقطاع ومرة كما نقف عند كل جملة أو عبارة عربية وذلك لكي يذكرنا صاحبها بالمعنى العام الذى تصده منها . فاذا ما عجز الطالب عن استحضار المقابل الانكليزي وتذكره تطوعت بصفة عرضية لتذكيره بذلك المعنى .

ب - تفهم المعلم واستيعابه لشاعر الطلبة :

وهكذا بعد الاستماع الى الشريط المسجل اخذت مكاني بين الطلبة الذين لا يزالون جالسين في حلقهم وقد طلبت منهم ان يشاطروني واصدقائهم اى انطباع او ملاحظة تخص تجربتهم التعليمية الى هذا الحد . وقد صارحتي معظمهم انهم دهشوا لتكثرتهم من نطق بعض الاصوات العربية . وهكذا فقد بادر احدهم بمدح الآخر على ذلك النجاح الذي حققه وقد اخبرني طالب آخر انه كان قد شعر بان اللغة العربية ليست غريبة عنه رغم انه قد ارتكب بعض الاخطاء اللغوية .

لقد كان موقفي طوال هذه الحصة التعليمية محاديا ، وهكذا كلما وجه الطالب الى سؤال اُجبت عنه اجابة ضافية دونما اسهاب ، وقد كانت اجاباتي شمرهم بانني متفهم تماما لما يشغل بالهم حول بنية الجملة العربية ودلالاتها .

ج - كتابة الحادثة :

استمعنا الى الشريط المسجل القصير مرة ثالثة وقد وقفت هذه المرة امام السبورة وطلبت من الطلبة ان يقترحوا الجمل والمعارف اللغوية التي يودون تعلمها باديء ذي بدء . وقد كان الهدف من ذلك اشعارهم مرة اخرى انهم مسؤولون عما يتعلمون . وهكذا فقد كتبت الجمل العربية مباشرة ببطء وتأن وقد كنت عندما انتهت من كتابة الكلمة اُنطقها مقطعا مقطعا مبينا كل حرف وحركة وعلاقتها ببعضها بعضا .

وقد كان سبق لي ان شرحت لهم خصائص النظام الكتابي العربي واختلافه عن النظم الكتابية الاخرى التي يعرفونها . وبعد ان كتبت للجمل اللغوية تسمتها الى مقاطع بنائية ودلالية ثم كتبت بقلم احمر المقابل الانكليزي تحت كل مقطع لغوي مبينا وظيفته في الجملة العربية . وقد طلبت من الطلبة ان يتفحصوا تلك المقاطع ويتأملوها على السبورة بصمت ولمدة ثلاث دقائق وذلك لكي يتعرفوا ببطء وطمأنينة نفسية خالصة على المظهر الكتابي العربي وكيفية تشخيصه للاصوات العربية . ان الهدف الاساسي من اعلان تلك المدة الزمنية لتأمل المقاطع اللغوية هو اشعارهم بان خلف كل هذه النشاطات التعليمية التي تبدو غير

محكمة في الظاهر ، يبقى المعلم المستشار المسؤول عما يجري في قاعة التدريس ثم تمكينهم من استنباط القواعد النحوية والصرفية واستنتاجها ، تلك القواعد الاساسية التي بنيت عليها الجمل العربية المكتوبة على السبورة ثم لتمكينهم ايضا من اعداد بعض الاسئلة وطرحها في الحصة الموالية .

د - التمييز اللغوي : تحليل جماعي :

لقد قسمت الطلبة الى اربع فرق تضم كل فرقة ثلاثة طلاب وقد طلبت منهم التشاور فيما بينهم لمدة خمس دقائق ومحاولة ايجاد حلول لبعض الاسئلة التي كانوا قد اعدوها بعد تحليلهم الاولي للسادة اللغوية . وقد كانت الغاية من هذا التشاور تمكين المتعلمين من الاعتماد على بعضهم بعضا والتعبير عما توصلوا اليه من استنتاجات لغوية غير متقيدتين بحضور المعلم المستشار بينهم . ويعتقد ستيفك Stevick ان المتعلم قد يكون في بعض الاحيان اكثر كفاءة من المعلم نفسه في الاجابة على بعض الاسئلة (10) .

هـ - التمييز اللغوي : التاكيد من الاستنتاج :

لقد طلبت في نهاية هذا النقاش والتحليل الجماعي من الطلبة ان يشاركوني بما استقر الراي عليه حول بنية الجمل العربية . وقد كان معظم ما قدموه صحيحا ، اما في الحالات القليلة التي كان فيها استنتاجهم خاطئا او ناقصا فاتي كنت احاول تصحيحه بنفس الاسلوب العرضي المألوف دون اطناب واسهاب .

و - التامل اللغوي : فسح النص المكتوب :

بعد الاستماع المتكرر للحادثة اللغوية وفهمها ودرسها ومناقشتها فقد طلبت من المتعلمين ان ينسخوا نص الحوار . وقد كانت هذه العملية آخر نشاط لغوي لليوم الاول .

ويمثل هذا النشاط اللغوي على حد راي كورن آخر خطوة في الاكتساب اللغوي الذي كان قد ساهموا به وخنزوه في ذاكرتهم وذلك استعدادا لاستثماره من جديد . وقد كان على الطلبة ان يؤديوا عملية النسخ بكل عناية وانتباه ويخط جميل واضح .

وتد ذكرتهم بالجانب الفنى الحالى لرسم الحروف العربية ثم دعوتهم بعد ذلك الى تبادل الاوراق المنسوخة فيما بينهم حتى يتأكدوا مما نسخوه . غير انى جعلت هذا التبادل اختياريا كلما شعرت بان روح المجموعة غير متجانسة وان ثقتهم فيما بينهم ليست ثقة قوية .

(5) الخطوة الثالثة : التعامل مع البطاقات : التأمل والتمييز والتخزين اللغوى :

لقد قسمت الطلبة فى اليوم التالى الى ثلاث فرق ثم وزعت على كل فرقة مجموعة أزواج من بطاقات الورق المقوى وقد كان كتب على البطاقة الاولى الكلمة العربية التى وردت فى الحادثة اللغوية وكتب على البطاقة الثانية المقابل الانكليزى . وقد مزجت هذه البطاقات مع بعضها بعضاً ووضعتم على المائدة المستديرة الموجودة فى وسط كل فرقة وذلك بعد ان اخفى الوجه المكتوب منها . وهكذا يأخذ كل طالب بالتناوب بطاقة من تلك البطاقات ويشعر فى البحث عن المقابل الذى كتب على بطاقة اخرى فاذا كان وجه البطاقة المكشوف يحبل الكلمة الانكليزية فان على الطالب ان يستحضر نظيرها العربى . وبما انه لا احد يعلم موقع هذا النظير اللغوى بين البطاقات المطروحة فانه يجب الاختبار بصفة عرضية . فاذا كان وجه البطاقة المكشوف لا يقابل الكلمة الانكليزية ارجعت البطاقتين الى مكانيهما الاصيلين . اما اذا كانت البطاقة الاولى تحمل كلمة عربية فان المتعلم عندئذ يحاول نطقها فان عجز عن فعل ذلك طلب الاستعانة بأحد اعضاء فرقته فاذا لم يقدر احد طلب الاستعانة بالمعلم المستشار . وبعد ذلك يشرع فى البحث عن المقابل الانكليزى فى الطريقة نفسها التى ذكرتها .

وإذا عثر المتعلم على نظير البطاقة التى فى يده انيحت له فرصة ثانية وذلك مكافأة على نجاحه فى الفرصة الاولى . ثم يترك المجال بعد ذلك الى المتعلم الثانى وهكذا دواليك .

وبعد ان تفرغ فرقة ما من كشف جميع البطاقات سحب البطاقات المكتوبة بالانكليزية ويحتفظ بالبطاقات العربية ويشرع المعلمون فى مراجعتها دون العودة الى اللغة الناطقين بها .

وبعد ذلك تتبادل الفرق الثلاث بطاقاتا مع

بعضها بعضا وذلك لكى يطلع جميع المتعلمين على كل الكلمات العربية ومرادفاتها الانكليزية .

ينحصر دور المعلم المستشار خلال هذا التمرين فى الاستماع لما يدور بين المتعلمين دونما تدخل مباشر وذلك لتمكين المتعلمين من الاعتماد على انفسهم من جهة والاعتماد على بعضهم بعضا من جهة اخرى . ولكنه فى الوقت نفسه ينبغي على المعلم ان يشعر الطلبة بأنه دائما على استعداد لاعتانتهم ومساعدتهم.

اما الخطوة التالية فى هذا النشاط المختلف فتمثل فى تركيب الجمل المفيدة وذلك من خلال استعمال الكلمات العربية التى كان قد استأنس المتعلمون بها . ان هذا المجهود الابتكارى فى تركيب الجملة انها هو مجهود جماعى يتكفل به عضو واحد من كل فرقة وذلك بكتابة الجملة المتفق عليها بأحسن خط ممكن . وبعد الانتهاء من كتابة الجملة فاننى اتحول الى الفرقة المعنية بالامر وأراجع تلك الجملة العربية مقترحا بعض التفسيرات المفيدة هنا وهناك أو اننى فى بعض الاحيان اترح على الفرقة كتابة الجملة من جديد .

وبعد ان تفرغ كل فرقة من كتابة الجمل العربية على هذا النوال فانها تتبادلها مع الفرقة الاخرى . وبهذا تتمكن كل فرقة من الاطلاع على ما ابتكرته الفرقة الاخرى .

وبانتهاء هذا التبادل الجماعى تنتهى هذه الاستراتيجية التعليمية . وتوضع جميع البطاقات فى صندوق صغير يدعى « بنك الكلمات » الى ان تدعو الحاجة الى استعمالها من جديد وذلك فى مساهمة لغوية قادمة .

ان هذا التمرين اللغوى الذى يشبه الى حد ما لعبة الورق قد مكن كل متعلم دون اجهاد مفرط من التعامل مع اللغة المدروسة بمفرده اولا ثم بمشاركته الجماعة المتعلمة ثانيا ثم بمساعدة المعلم المستشار ثالثا . وبالإضافة الى الجو التعللى المكثف الذى توفره هذه الاستراتيجية التعليمية ومتغيراتها فقد لاحظنا ان كل متعلم من خلال احتراجه لقواعد هذه اللعبة اللغوية قد احترم نسبيا كل طالب فى تلك الفرق وحتى ان المتقدم والسابق منهم تراه يتبنى موقفا تضامنيا وتعاونيا مع زملائه على الرغم من دوافعه البشرية الفريزية الى اظهار قدرته اللغوية أملهم .

كما ان التزام المعلم بالتحفظ طوال هذا النشاط اللغوى لا يشجع اى تنافس قد يخل بتوازن

المجموعه ككل .

المتعلم وداخله النفسى .

ان المراحل الاولى لهذه التجربة التعليمية انما هي مراحل حساسة ودقيقة بشكل خاص . لذا يتعين على المعلم الا يطلق العنان للفراغز التعليمية التى غرست فيه كعلم . كاقترح موضوع للمحادثة او تدريس النصو للنحو دون مبرر وظيفى مباشر او اصلاح كل هفوة لغوية شاردة او واردة . كما يقيم على المعلم ان يخلق باستمرار علاقة انقية تعليمية جماعية ثم يحاول تهيئتها حتى لا يترك المجال لظهور اى تنافس سلبى بين المتعلمين . فقد اثبتت البحوث اللغوية النفسية الحديثة ان هذه العلاقة الامتية تساهم اكثر من اى عامل آخر فى تعلم اللغات الاجنبية واكتسابها .

اننى لا انكر ما للطرق التعليمية الادراكية او السعمية الشفوية وتمازيتها من مزايا فى تبليغ اللغات الاجنبية وتعلّمها . كما اننى لا ادعى ان منهج التعلّم الجماعى هو القول الفصل فى ميدان تعلم اللغات الاجنبية واكتسابها .

ان كل ما أرجوه هو ان تكون تجربتنا هذه مدخلا الى منهج جديد يساعد فى تبليغ المعلم ان تدريس اللغات ليس مجرد عملية تقنية وكفاءة لغوية بل انها عملية تتبع قبل كل شىء من قرارة النفس الانسانية للمعلم والمتعلم فى الوقت نفسه .

(6) الخطوة الرابعة : مخاطبة المعلم المستشار للمتعلمين

ان النشاط الاخير لليوم الثانى والذى يعتبر الاخير بدوره انما يتمثل فى شبه حديث مجمل يتضمن بقدر الامكان كل الكلمات والعبارات العربية التى كان تعرف عليها الطلبة . وقد شرحت للطلاب فى بداية هذا الحديث باننى لن اطرح عليهم اى سؤال لغوى يتعلق بتلك الكلمات والعبارات . بل تنحصر مسؤوليتهم فى الاصفاء الى ما سوف اتوله ومحاولة فهمه فيها عاما وبعد الحديث الذى استغرق منى حوالى دقيقتين تطوع بعض المتعلمين بتلخيص ما فهموا باللغة الانكليزية . وكانت ترجمتهم فى غالب الاحيان صحيحة . وهكذا تبين لى المستوى اللغوى القيم الذى تم تخزينه لسدى الطلبة .

الخاتمة :

ان منهج التعلّم الجماعى للغات الاجنبية انما هو تجربة تعليمية جماعية تدور نشاطاتها فى قاعة التدريس نفسها وتتألف من حصة كلامية وحصة تأملية تمييزية لغوية . وفى اطار هذه المنهجية التعليمية يكون المعلم المستشار متفرغا تفرغا كاملا لما يدور خارج

هوامش البحث :

- (1) اريد ان اتوجه بالشكر الى الاستاذ مازن الوعر الذى فضل بقرائه ومراجحته وقد استفدت الكثير من مقترحاته وتعدلاته
- (2) نذكر من هذه الطرق الطريقة الكلامية السعمية Audio-lingual Method وطريقة الترجمة النحوية Grammar Translation Method . لمزيد الاطلاع على هذه الطرق راجع : Wilga M. Rivers 1968 Teaching Foreign Language Skills. Chicago University Press P. 13-55
- (3) لمعرفة التحولات اللسانية من البنوية الى الذنية راجع البحث الذى كان قد كتبه مازن الوعر . وعنوانه « علم اللسان : من البنوية الى الذنية » مجلة المعرفة الدمشقية . السنة 19 - العدد 220 / 221 ص 15 - 34 . 1980 .
- (4) المعرفة ما قاله ستيفك فى هذا المجال راجع : E. Stevick 1976 «Memory, meaning method» Rowley, MA : Newbury House. Publication PP.159 - 160
- (5) انظر : Charles A. Curran 1976 «Counseling - Learning in Second Languages». Apple River, Illinois : Apple River Press.
- (6) انظر : Charles A. Curran 1968 « Counseling and Psychology» Apple River, Illinois, Apple River Press.
- (7) انظر : Karin. Lentzner 1978 «The Community Language learning Approach to Arabic : Theory and Application» «Al-Arabiyya» Vol II, p. 11
- (8) انظر : C. Curran Counseling-Learning - New York, PP. 14-16
- (9) انظر : Stephen Krashen, 1976 «Formal and Informal Linguistic Enviroments in language Learning» Tesol Quarterly Vol 10. p. 159
- (10) انظر : Stevick 1976. «English As An Alien Language» In John F. Fanselow and H. Crymes (eds) Tesol 1976. P.6.

ثبت المراجع

المراجع العربية :

- 1 - مازن الوعر :
« علم اللسان من البنيوية الى الذمنية »
المعرفة الدمشقية السنة 19 - الممدد
(220 - 221) 1980 .

المراجع الاجنبية :

- 2 - Brown, D.A. "Affective Variables in Second Language Acquisition"
Language Learning, Vol. 23. 231-244, 1973.
- 3 - Curran, C.A. Counseling and Psychotherapy : The Pursuit of Values.
Second edition. Illinois : Apple River Press, 1978.
- 4 - Counseling-Learning in Second Languages. Illinois :
Apple River Press, 1976.
- 5 - Counseling-Learning : A Whole-Person Model for
Education.
New York : Grune and Stratton. 1972.
- 6 - Gardner, R.C. and W.E. Lambert. Attitudes and Motivation in second
Language Learning.
Massachusetts : Newbury house, 1972.
- 7 - Gattegno, C. Teaching Foreign Languages in Schools : The Silent Way
Second edition. New York : Educational Solutions,
Inc, 1972.
- 8 - Krashen, S.D. "The Monitor Model for Adult Second Language
Performance."
IN : Viewpoints on English as a Second Language.
Edited by M. Burt, H. Dulay and M. Finocchiaro.
New York : Regents, 1977. 152-161.
- 9 - "Formal and Informal Linguistic Environments in
Language Learning and Language Acquisition."
TESOL Qarterly. Vol. 10, 1976. 157-168.

- 10 - Lozanov, G. Suggestology and Outlines of Suggestopedy. New York : Gordon and Breach, 1979.
- 11 - Nida, E. "Socio-psychological Problems in Language Mastery and Retention."
IN : The Psychology of Second Language Learning.
Edited by P. Pimsleur and T. Quinn. Cambridge :
Cambridge University Press, 1971. 59-65.
- 12 - Rogers, C.P. Carl Rogers on Encounter Groups. New York : Harper Row, 1970.
- 13 - Ryding-Lentzner, K. "The Community Language Learning Approach to Arabic : Theory and Application. "
al-Arabiyya, Vol. 11, 1978. 10-14.
- 14 - Rivers, W.M. Teaching English Language Skills. Chicago :
University of Chicago 1968.
- 15 - Ryding-Lentzner, K. "The community Language Approach to Arabic : Theory and Application." al-Arabiyya. Vol. 11, 1978. 10-14.
- 16 - Stevick, E. A Way an Ways. Rowley, Massachusetts : Newbury House, 1980
- 17 - Memory Meaning and Method. Rowley, Massachusetts :
Newbury House, 1976.
- 18 - "English as an Alien Language." IN : on TESOL 76.
Edited by J. Fanslow and R.H. Crymes. Washington,
D.C : TESOL.
- 19 - Taylor, B. "Toward a Theory of Language Acquisition."
Language Learning. Vol. 24, 1974. 23-36.

تكوين الفكر العربي قبل الإسلام

- 6 -

د. رشاد محمد خليل

الفصل الثاني

تصور الوجود في الفكر العربي قبل الإسلام

عدم ، واوجده الله أعطاه ، ووجد غضب ، ووجد
حزن « (1) وفي كل هذه المعاني الوجود معناه ابتداء
في زمن ، وهو في نفس الوقت اكتساب شيء لم يكن.
وعليه فمن الخطأ ان يقال في العربية : الله موجود
اولا للمعنيين السابقين وهما : الابتداء في الزمن ،
واكتساب الوجود الذي لم يكن ، وثانيا لان موجود
اسم مفعول بمعنى اوجده موجود ولا يقال ذلك في حق
الله عند العرب .

من أجل هذا جعلت هذا المبحث قاصرا على
تصور الوجود عند العرب واليونان بمعنى المالم ،
وجعلت مبحث الفكرة الدينية الخاص بالله وصفاته
مستقبلا .

ولكني مع ذلك ساستعمل معجم الفكرة الدينية
نفسه ومن وجه آخر ، في الكشف عن تصور العرب
للوجود مع الاستعانة بما يحتاجه البحث من دراسات
لغوية وفنية للشعر القديم (الجاهلي) في اطار اوسع
وحين نعيد التعامل مع معجم الفكرة الدينية نكتشف
فيه الحقائق الآتية :

1 - تصور العرب العالم مخلوقا ومصنوعا ، وان
خالقه وصانعه وبارئه ومبدعه ومصوره هو الله

في الفكر العربي :

يندرج تحت عنوان الوجود في الفلسفة القديمة
مبحثان هما : الطبيعة ، وما بعد الطبيعة ، ويدور
المبحث الاول حول العالم وعقله واسبابه وتوابعه
وتراكيبه .. الخ ، وينور المبحث الثاني حول الالهيات ،
اي الله باعتباره علة وضرورة لهذا العالم ، وذلك في
المباحث التي فصلت بين العام والله او حلوت ذلك
مثلا فعل افلاطون وأرسطو ومن تابعهما ، أما في
المباحث التي جعلت الله والعالم شيئا واحدا كما هو
الحال عند الماديين والاليين فمبحث الوجود يبحث
العالم والله في مبحث واحد لا مبحثين منفصلين .

أما العرب كما سنرى فقد أخرجوا الله من مبحث
الوجود أصلا ذلك لانهم لم يتصوروا الله وجودا على
اي وجه من هذه الوجوه لا خارج العالم ولا داخله ،
ذاك ان الوجود عند العرب يعني معنيين : اولهما
الابتداء في زمان ثانيهما اكتساب شيء لم يكن .. « يقال
اوجده الله اغناه ، والواجد الذي يجد ما يقضى به
دينه ، وهذا من وجدى اي قدرنى ، ووجد الشيء عن

نعالى ، وذلك لانهم اثبتوا لله كما سبق ان رأينا صفات الخالق والصانع والبارى والمصور والمبدع ، وتسمى هذه الصفات الخلق ابتداء ، والايجاد من العدم ، ذلك ان الخلق لغة التقدير ، يقول زهير :

ولانت تقرى ما خلقت وبم
ض التوم يخلق ثم لا تقرى

ومعنى تقرى ما خلقت ، اى تنجز ما قدرت على احسن وجه ، وخلق الله الخلق بخلقه خلقا احدثه بعد ان لم يكن وفق تقديره ، فالايجاد من عدم احد معانى الخلق ، ويلاحظ هذا المعنى فى الاستنتاجات التى يراد بها الاختراع ، ولذلك يقال الخلق بمعنى الكذب ، والعرب تقول حدثنا فلان بحدث الخلق ، وهى الخرافات والاحاديث المتعلقة . ورجل خالق اى صانع ، وعلى هذا المعنى يكون الخالق قد خلق العالم وفق تقدير قدره ، والعالم الخلق (اللسان ج 1 ص 86 / 87) وكذلك الحال فى البارى والصانع والمبدع والمصور ، فبرا معناها خلق ، والمبدع الذى يبتدع الشيء ابتداء اى ينشئه ويبداه (اللسان ج 8 ص 6) ، ايا المصور فهو الذى ينشئ الاشياء فى شكل (اللسان ج 4 ص 473) ، والصانع هو الفاعل لان صنع معناها فعل (مختار الصحاح ص 371) ، والصانع والمصور وان لم يتضح فيهما معنى الخلق ابتداء - اى من العدم - فانه يتضح فيهما معنى الخلق عامة وتحويل الشيء ووضعه على شكل وصورة .

فالعالم اذن ليس قديما باى معنى من معانى القدم عند العرب ، اى انه خرج من العدم المحض ، واوجده الله ابتداء حيث لم يكن موجودا من قبل على صورة من الصور .

2 - تصور العرب العالم مخلوقا ومصنوعا ومبدعا على غير مثال سابق ذلك ان من معانى الخلق ايضا ابتداء الشيء ابتداء على غير مثال سابق عليه ، فالخلق فى كلام العرب على معنيين احدهما التقدير كما سبق والثانى الخلق على مثال ابدعه اى اخترعه (اللسان ج 1 ص 86) ، وكذلك لفظ المبتدع له معنيان احدهما ما سبق وهو الانشاء ابتداء والثانى : ان بدعت

الشيء ابتدعته لا على مثال (اللسان ص 6) ، واذا فالعالم لم يسبقه نموذج او مثال يحاول ان يقلده وان يصنع نفسه ويشكلها على مثاله ، فقبل العالم لم يكن شئ الا الله .

3 - ولكن اذا كان العالم قد خرج من العدم المحض لا على مثال سابق . ولا من هوى ابدية ، ولم يكن نتيجة حركة ازلية لمادة ازلية ، فكيف خرج من العدم المحض . يقول العرب فى ذلك ان العالم قد خرج من العدم المحض اى الوجود باذن الله ومشيئته وتدرته وارادته . ولذلك سماوا العالم بالمخلوقات اشياء ومقدرات لانها وجدت وخلقت بمحض القدرة والمشيئة . فالتقدير والقادر من صفات الله يكونان من القدرة ويكونان من التقدير ، والقدرة من الفعل قدر . فالتقدير اسم فاعل من قدر يقدر (اللسان ج 5 ص 74) . وكذلك الشيء من المشيئة اى الإرادة شئت الشيء شاءه شيئا ، فكل شئ بمشيئة الله وبإذنه اذا اراده او اشاءه قدر عليه بقدرته فأخرجه من العدم الى الوجود بمحض قدرته ومشيئته التى اذا ارادت شيئا كان بعد ان لم يكن .

4 - وقد خلق الله العالم واخرجه من العدم المحض الى الوجود بمحض قدرته وارادته ومشيئته دون وسطاء من آلهة او ارباب آخرين لهم معه مشاركة فى خلق او انشاء او تقدير او تدبير لانه فى ذلك واحد لا شريك له ، فالله فى هذا ليس له شريك فى اعتقادهم كما سبق ان سجلنا . اما الشركاء او الالهة الذين دعواهم معه فهم مجرد شعفاء كنا سبق ان سجلنا ايضا .

5 - اعتقد العرب ان فى الاشياء والمخلوقات فطرا وطبائع ليست لازمة لها من نفسها ولا من محض وجودها ، وليست ضرورة لازمة عنها ، وانما هى فطرة وطبيعة انتضتها مشيئة الله وارادته التى خلق كل شئ على صورة الزمها اياها ، وطبيعة على خليفة وسجية يكون عليها ، والخلة لغة الفطرة والطبيعة والسليقة بمعنى واحد (اللسان ج 1 ص 86) ، وطبعه الله على الامر بطبعه طبيعا فطره ، وطبع الله الخلق على الطبائع التى خلقتها فانشأهم عليها ، وهى خلانقهم تطبعهم طبيعا (اللسان ج 8 ص 232) ، والفطر الابتداء والاختراع والفطرة

منه الحالة ، والمعنى انه يوجد على نوع من الجبله والطبع (الانسان ج 5 ص) .

6 — والاشياء في الوجود مقدره تقديرا اى تجرى على سنة ونظام لا يحض الصدفة والاتفاق ، نكل شىء مخلوق له نظامه ، وقدره هو طبيعته وخطته ومطرنه وجبلته كما سبق القول ، والعالم كله يجرى على سنن ونظام ، تضاه الله وقدره تقديرا ، وذلك لازم من وصفهم لله بالقادر المقدر ، ومن تفويضه لهم في قضائه وقدره ، وقضى : حكم وقدر الحكم ايضا ، فالقدر ليس قوة حاكمة على الله والعالم ، يخضع لها الله والعالم بهتقضى الضرورة في النظام او القانون ، وانما القدر عند العرب هو قضاء الله وقدره في العالم كما سبق القول في مبحث الفكرة الدينية .

7 — وقضاء الله وقدره عدل ، وان جهل الانسان الحكمة ايضا ، والله بقضائه وقدره العدل يخضع في العالم قوما ويرفع آخرين ، ويبسط الرزق لمن يشاء ويقتدر ، وينح ، وينع ، ويعطى ويأخذ ، ثوابا او عقابا ، او لحكمة يعلمها ، ولكن حكمه عدل في كل حال ، وامره نافذ على اى حال ، ولكن امره وحكمه وقضاؤه وقدره مصحوب برحمته لانه رحيم رحيم .

8 — والله لم يخرج العالم من العدم المحض الى الوجود وكفى ، ولم يبدعه على غير مثال سابق وكفى . ولم يفعل ذلك باذنه ومشيئته وكفى ، ولم يطبع الاشياء على طبائع وجبلات وكفى ، ولم يحكم الكون وينظمه بهتقضى سنن ونظم وقوانين تعمل فيه وتعمل في الاشياء بحكم طبائعها وكفى . ولكنه بتصريف في العالم ايدا ، عالم به ومحيط بكل ظاهر وخفى فيه ايدا ، يسرى ويسمع ويراقب ويشهد ، ويرعى الخاق كله جليله وخطيره ، فيمنع ويمنح ويعطى ويأخذ ويشيب ويميتب كما سبق القول ، ويرزق ويمين ويساعد ، وذلك بهتقضى لانه المانع المانع ، المعطي الوهاب ، الذى يجزى على الخير والشر ، الرزاق المعين ، المؤمن (الذى يؤمن الخائف) . فهو لم يخلق العالم ثم يتركه لنفسه ، ولا لسننه وقوانينه ، ونظمه وطبائعه ، رغم انه اودع فيه ذلك كله ، ولكنه يصرفه ايدا ويدبره ايدا ، ويحكم فيه ويتقضى ايدا ، فهو المدبر والمتصرف والحكم العدل .

9 — والله لم يخلق الخلق ابتداء ودفعة واحدة ثم اخذ يدبره ويصرفه ، وانما خلقه اطيوارا وحالات ، فالخلق عملية دائمة مستمرة ، والانشاء والاعدام قائم ايدا ، وصفات الخالق والبارىء والمصانع اسماء وانمال تلزم صاحبها ايدا ، لقد كان الله وما يزال خالقنا وبارنا وصاننا ، وقد كان وما يزال مدعا ومصورا لان هذه اسماء الة تلزم صاحبها ما دام قائما ، ولذلك قال قيس بن الخطيم :

قضى لها الة حين صورها الخالق الا لا يكنها سدق (2) .

10 — وهو لا يقضى ويدبر ويتمصرف في خلقه في غيبة عنهم او من بعد ، وانما يقضى ويتمصرف ويدبر ، وهو قريب منهم ، يسأله الخلق فيجيبهم ، ويدعونه فيستجيب لهم ، ويلجأون اليه فيحييهم ، ويستعينونه فيعينهم ، ويستعيذونه فيعيذهم ، فهو المسؤول ، والمعذ ، والمعين ، والمجاء ، فهو قريب من عباده ، بلا حاجز ، وبلا واسطة .

السنن اتي لاحظها العرب في الوجود :

ذلك هو تصور الوجود في الفكر العربي كما تكشف عنه دراسة معجم الفكرة الدينية ، ولكن الدراسة الواسعة المنفصلة للشعر اقدم تكشف لنا ايضا عن بعض السنن والنظم والقوانين التي لاحظها العرب في الوجود وسجلوها ملاحظتهم عنها ، وكان لاعتبارها عندهم اكبر الاثر في فكرهم واخلاقهم ، وهي وان كانت موجودة في معجم الفكرة الدينية اجمالا الا انها موجودة في الشعر بتفصيل شديد نحاول ان نشير اليه وننبه الى طريقة تتبعه واستخراجه .

وقد سبق من هذه الملاحظات ما يخص النفس الانسانية في معجم النفس ولا نحب ان نعود اليه وانما ننبه الى انه يدخل من هذا الوجه في مبحث الوجود ، وقد سجلنا هناك ما لاحظوه من صفات النفس والعقل ووظائفها واسلوب عملها ، وما فطرت عليه النفس من خير وشر ، وما فطر عليه العقل من حكم وتبويض وضبط (دون تحديد ماهيات او تقسيم اجناس) وهو يعطينا صورة واضحة عن ملاحظة العرب لقوانين الة وسننه في فطرة النفس .

وجبلتها وطبيعتها . ونكتفى بالإشارة الى ذلك في مكانه هناك .

أما الجانب الذي نحب أن نتكلم عليه هنا فهو (السنن) العاة أو (قوانين) الوجود .

الحركة ،،، الزمن ،،، الدهر :

سبق أن لاحظنا في دراستنا لصيغ الزمن في الأعمال أن العرب بنوا هذه الصيغ على أساس من تصور الزمن حركة مطلقة ولا يتطعمها سكون ، وإنما هو ديمومة مستمرة يتعلق بها الفعل من ناحية استمراره هو وانقطاعه ، ولكنه لا يتعلق بالزمن باعتبار الجهة لأن (صيرورة) الزمن ، أي ديمومته المطلقة ليس فيها جهة ، ليس فيها ماض وحاضر ومستقبل ، لأن هذا التقسيم خاص بالفعل لا بالزمن ، فالزمن نفسه يجري باستمرار ، ولكن الفعل هو الذي يستمر أو ينتطمع والفعل في حالة اتصاله بالزمن لا يتبين نيه الحاضر لأن التحول المستمر من المستقبل الى الماضي يلغى الحاضر ، وقد لاحظنا في دراستنا للاستخدامات الفنية لهذا التصور كيف داخل الزمن (المسافة الزمنية) والتي تسمى بالإيجاز في التركيب الفني للقرآن والشعر ، ولكن أبعاد هذا التصور لم تقف عند الاستخدام اللغوي أو الفني وإنما تجاوزتها الى أبعاد فكرية وأخلاقية .

ولم يفتل العرب في تصورهم بين الحركة والزمن ، وإنما جعلوها شيئا واحدا سموه الزمن وسموه الدهر ، أما الساعات والأيام والليالي والأعصر ، فهو تقسيم لقياس الحركة الدقيقة المنضبطة في الكون . ولكنها ليست شيئا آخر بجانب الحركة نفسها ، وأذن فإدهر أو الزمن هو الحركة نفسها سواء نظرنا إليها في إطلاقها أو قياسها .

شمول سنة (قانون الحركة) الزمن أو الدهر)

لاحظ العرب أن الحركة التي سموها (الزمن الدهر) هي قانون الوجود الأساسي ، وبها يرتبط كل شيء وجودا وعدما ، خلقا وافتاء ، حياة وموتاً صفراً وكبراً ، شباباً وهرباً ، خصبا وجدبا ، فهي شاملة للوجودات كلها المادة والحياة ، الظواهر المنضوية ، والظواهر الثابتة ، أي كل شيء في الوجود السحاب والجبال ، النبات والحيوان ، والإنسان ،

الصحة والمرضى ، الفنى والفقر .. الخ ، فليست هناك ظاهرة في الوجود تفلت من سلطان الزمن أو سطوته أو تضائه المحتوم ، وفي حيز ضيق مثل هذا لا يمكن تفصيل هذا البحث ، وحسبنا أن نعطي صورة واضحة منه بقدر الإمكان .

ونحب أن ننبه الى أن هذا التأثير التعييني في الوجود لا يأتي للزمن من مجرد جريانه المستمر ، أو حركته الدائرية ، والتي صورها أبو ذؤيب بقوله :

هل الدهر الا ليلة ونهارها
والا طلوع الشمس ثم غيلها

وأما لأن هذه الحركة قد ارتبطت بسنة أخرى أو قانون آخر هي سنة أو قانون التغيير .

سنة (قانون) التغيير :

تشمل هذه السنة (القانون) كافة أشكال الوجود كما سبق القول . وقد سبحنا الشعر وكأمة ظواهر التغيير التي أحاطت بهن في الشعر ومنها :
الخصب والجذب في الإمكان ، والممران والخراب في المساكن ، ولم يتنبه أحد فيما أعلم الى القيمة الفكرية الكبيرة للقائد ذات المقدمات الطللية ، التي سجلت حس العرب العميق بتداول الحياة ، وتبدلها ، في قانون صارم ، وذلك أن كل ما استطلعت نظر الباحثين هو الدلالة الفنية للقائد للطللية ، ولما رأوا الشعراء جميعا يقفون في كثير من شعرهم تكلموا عن التقليد الفني وهو افتتاح القوائد بمقدمة تقليدية تمثل في الوقوف على الاطلاع ، وتكلموا عن الجمود الفني الذي استازمه هذا التقليد ، وعن المعاني المتكررة المملة والمتكلنة في هذا الوقوف . الخ .

ولا أريد أن أخوض في هذا البحث الطويل في أساليب الشعر القديم (الجاهلي) لأنها دراسة واسعة ليس هذا مجالها ، وإنما أتبه فقط الى القيمة الفكرية الكبيرة لهذه الوقفات الطللية .

المقدمة الطللية :

تبدأ المقدمة الطللية برسم صورة الماضي نسي بشاهد درامية ذات طابع مسرحي فهي تبدأ أحيانا بطلب (ديولوجي) حوارى يخاطب فيه الشاعر صحبه

فردا أو جماعة مثل قول امرئ القيس في مطلع
معلقته :

السى ان يقول :

موقفت اسألها وكيف سألتها
صبا خوالد ما يبسين كلامها

كما نعل طرفة في مطلع معلقته حيث يقول :

لخولة اطلال ببرقة ثمهد
تلوح كباتى الوشم في ظاهر اليد
وقوفا بها صحبى على مطيهم
بقولون لا تهلك أسى وتجلد

وتد يقف على الديار متاملا كما نعل عبيد في مطلع
معلقته حيث يقول :

اقتر من أهله ملحسوب
فالتطيمات فالذنوب

والهدف من هذا الوقوف بصوره المختلفة هو
استحضار الماضى في صورة درامية عن طريق استحياء
مشاهد قديمة دارت أحداثها في هذا المكان حيث هذه
الاطلال ، ولذلك يستتبع الوقوف عادة مشهد الرحيل،
واستحضار صورة الحبيبة الراحلة أو كليهما معا ،
كما ان الوقوف نفسه إما أن يكون رمزا للذهاب المطلق
إى الذهاب الى غير رجعة ، وهنا يكفى الشاعر بإبراز
المعالم التى عفا عليها الدهر في المكان ، أو يكون وقوفا
يرمز الى تداول الحياة بين الأقبال والادبار ، والغناء
والنجد فتختلط آثار الذاهبين بالحياة الجديدة نسي
صورة الظباء والنعام والشجر ويعمر الأرام .. الخ
وذلك لتعيق الإحساس بيمد العهد بالذاهبين من
ناحية ، ولتأكيد معنى التجدد من ناحية أخرى .

ولان الموقف موقف ذاتى بحت رغم وحدة الموقف
نجد أن لكل شاعر طلاله أو اطلاله الخاصة ، التى
تعكس موقفا تأمليا في حالة نفسية خاصة ، ولا يتسع
المجال هنا لأيراد نصوص كاملة ولذلك نحيل على
مقدمات المقصائد الطللية لان فيها تفصيل ما ذكرناه .

ويتطبيق هذا التصور على مجال خاص هو مجال
التاريخ ، نلاحظ أن العرب قد سجلوا بكثير من التأمل
والاعتبار ما يلحق الحياة والإحياء من تبدل عبر العصور
ومن نماذج هذا التأمل العميق في تبدل المصائر والأحوال
يتأثير الدهر الدوار والزمن السيار قول أبو الصمغان

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وقول النابغة في مطلع معلقته الثانية :

عوجوا نصيوا لنعم دمنة الدار
ماذا تحيون من نوى وأحجار

أو مطلع معلقته الاولى :

يادار مية بالمايأء فالسند
أصوت وطال عليها سالف الأمد

أو تبدأ بنولوج يناجى فيه الشاعر نفسه كما
نعل عنتره في مطلع معلقته وهو :

هل غادر الشمراء من متردم
أم هل عرفت الدار بعمد توهم

أو كما نعل زهير في مطلع معلقته وهو :

أمن أم أونسى دمنة لم تكأم
بحومانة الدراج فالمتسلم

وكما نعل الأعشى في مطلع معلقته وهو :

ما بكساء الكبير بالاطسال
وسؤالسى فهسل ترد سؤالسى

أو يرسم صورة المكان (المسرح) تمهيدا للمنولوج
مثل قول لبيد في مطلع معلقته :

عفت الديار محلها بمقامها
بنسى تأبد غولها فرجامها
نمدافع الريسان عرى رسمها
خلقا كما ضمن الوعى سلامها
دمن تجرم بعمد عهد أنيسها
حجج خلون حلالها وحرامها

القتيبي :

الاول : هو الذي نحن بصدده اى شمول سنة التغير
وحتية المصير ، والثانى : وهو تقديم نموذج للاسلوب
الذى يجب اتباعه فى دراسة الشعر القديم (الجاهلى)
لاستكشاف قيمته الفنية والفكرية ، وهو اسلوب يخالف
تماما الاسلوب الذى يدرس به هذا الشعر الى وقتنا
هذا .

معلقة عبيد بن ابرص من رواية الخطيب التبريزي :

ويقول سليمان بن ربيعة معتبرا بمصائر العرب
جميعا من يمانين وشماليين :

ما لذة العيش والغنى للدهر
والدهر ذو فناء
اهلك طسما وقبل طسما
اهلك عمادا وذا جردون
واهمل جاش ومبارب
وهى لقمان والتسون

ويقول الاسود بن يعمر النهشلى متمزيا :

ان المنية والحتوف كلاهما
يوقس المخارم بوقبان سوادى
لئن يرضيا منى وفاء رهينة
من دون نفسى طارقي وتلادى
ماذا اؤمل بعد آل محرق
تسركوا منازلهم وبعد اباد
اهل الخير نرق والسدير وبارق
والقصر ذى الشرفات من سناد
ارضا تخيرها لدار ابيهم
كعب بن مامة وابسن ام دواد
جريت الرياح على مكان ديارهم
فكانتوا كاتوا على بيماد
ولقد غنوا منها بلتعم عيشة
فى ظل ملك ثابت الاوباد
نزلوا بانقرة تسيل عليهم
ماء الفرات يجسىء من اطواد
ماذا النعيم وكل ما يلهى به
يوما يصير الى بلى ونفاد (4)

على انه من حسن الحظ ان نجد قصيدة واخدة
تشمل كثيرا من ضروب التغير والتحول والمصير الحتمى
الذى تنتهى اليه مختلف ظواهر الحياة فى الوجود ،
ونحن نقدم هذه القصيدة هنا لنحقق بها هدفين ،

لهذه القصيدة طابع خاص يكاد ان يكون فريدا
فى بابها فى الشعر القديم ، فهى اقرب فى نسجها الى
اسلوب (الاوبرا) الحزينة ، فهى نوع من البناء المعقد
الذى يشترك فيه الحدث والتولوج والسرد فى خلق
رمز كلى مركب من عدة رموز تخضع كلها لنسق لحنى
خاص تحكمه قافية تتناوب فيها الواو والياء لتحقيق
قرار عميق يحس به المرء حين ينشد القصيدة محققا
المد فى الواو والياء تحقيقا كاملا ، وقية هذا الرمز
المركب من هذه المشاهد الدرامية والسرد معا ،
بالاضافة الى اللحن ذى القرار العميق انه ليس رمزا
لشيء ، ذلك انه رمز لا يفضى الى موضوع او عرض
على طريقة الشعر القديم (الجاهلى) فى استخدام
الرمز ، وانما هو رمز مطلق مقصود لذاته لانه يعادل
اكل وجودى شامل اكبر من هلوم الارادات الفردية
ومشكلاتها واحداثها ، تحقيقا لرغبة او طموحا الى
غاية ، او تعزيا عن مصيبة .. الخ ، واكبر مشاغل
الحياة الاجتماعية هجاء او فخرا ، حريا او سلبا ..
هذا الكل الذى يجسده هذا الرمز ويمعده هو
الحياة فى تاكدها الحتمى بالفناء والعدم والموت ، حيث
تكمن (باسويتها) بالنسبة للانسان هذا الكائن
العائل فى صيرورتها المطلقة ، فنحن هنا امام معادلة
كالية تتالمها بمعادلة امرىء القيس فى معلقته فى اتجاه
آخر ، فهذه القصيدة تتقابل وقصيدة قنا نيك لامرىء
القيس والتي لا نستطيع تقديمها لضيق المجال - فى
تصور الحياة ، فعند امرىء القيس نجد التأكيد على
معنى التجدد فى الحياة بالصيرورة ، ومن هنا كان
هذا التناول الكبير الذى يشيع فى جو القصيدة ، وهذا
الفرح العظيم بالحياة والذى تنبض به القصيدة ، بينما
نجد هنا فى قصيدة التفر من اهله ملحوب لعبيد التأكيد
على العكس ، اى التأكيد على معنى الفناء فى الحياة
بالصيرورة ، ومن هنا هذا الحزن الماسوى الذى يشيع
روح العويل فى القصيدة ، فعند امرىء القيس تتغير

هذه الدبوع القزيرة كلها والتي تجسرى عيوننا
وشلالات وانهاراً ، ليست دبوعاً على شيء خاص ،
أو أمام شيء بعينه ، إنما هي دبوع النجيمة الكبرى
أمام مشهد الفناء المطلق الشامل الرهيب ، وأمام
هذا التغير للأبدى الحتمى الذى لا يبقى حالاً على
حاله ، والذي يستجيبه الشاعر فى مظهره المختلفة
فى هذه الصور المتناقضة التى يخلف فيها الفناء فى
شئى صوره وأشكاله دائماً مظاهر الحياة للزوال ،
بما يدفع بالشاعر الى السخرية من نفسه على حرمة
على الاستمسك العقيم بهذه الحياة المدبرة أبداً ،
الذاهية أبداً :

تصير وأنى لك التصابى
أبى وقد راعك المشيب
بأن تكن حال أجموعها
فبلا بيدي ولا عجب
وكيل ذى بعنة يخلوس
وكيل ذى أسبل مكذوب
وكيل ذى أسبل مورث
وكيل ذى سلب مسلوب
وكيل ذى غيبة يسلوب
وغائب المسوت لا يسلوب

إن الشاعر فى هذا المتطوع من المولوج لا يقرر ،
ولا يسرد حكماً فى الحياة وتداولها بين الأحياء ، ولكنه
يكشف عن طريق استعراضه الواسع لجموعه من ميور
التداول بين النعمة والحرمان احساسنا بشمول سنة
التبدل ، فهو يستعرض تجربة الحياة كلها فى مجموعة
من الصور المستخدمة المركزة ، التى ترسم بتتاليها
ميورا درامية تعمق الحس المأسوى بالحياة التى أقصى
مداه وحين يفرغ من رسم هذه الصورة للفناء المطلق
يستوقفه شئ فى معنى التبدل ذاته شئ فى قسوة
التبدل دلالاته فيسأل نفسه :

حياة رغ رائحة لناع
أعباتنير مشيل فانتى راجين مع رة كشلا
أو غانم مثل رينين بخصيتيل حية
حاصع دلذلا دلذلا 17 له
العلى رمز الفناء وقذات الوجع أى الولين رمز
الحياة ، غانم النالج فى الحياة رمز لتأكد الحياة
بالاستمرار والتفوق ، والخصية رمز لالتزام الحياة
أمام الفناء والتداول .

الحياة حقاً وتغنى ، ولكنها لا تنفك تتجدد أبداً ، وهنا
منذ عبيد تتجدد الحياة حقاً ، ولكنها لا تنفك تغنى وتتبدد.
تبدأ القصيدة بحركة سينمائية سريعة فى المكان
الواسع لا ترمد فى المكان ذكريات ولا آثار حياة
جديدة ، وإنما ترمد معنى مطلقاً هو الخراب الذى
يقبل فى كلمة أقرر ، ثم تسكن الحركة على معنى
الخراب لاستقصيه فتد ذعب الجميع ، وحل محلهم
الوحش تأكيداً للخراب الشامل ، وغيرت حالها الاحداث
والخطوب ، فهى أرض توارثتها الجدوب ، كان لم
تغن بالأمس قط ، ولم تتداولها الحياة أبداً فكل من
حلها محروب : أى مضيع مسلوب ، أما قتيلاً ، وأما
علكاً وأما شيباً ، والشيب شين لمن يشيب :

أقرر من أهله ملحوب
فالتطيمات فالذنوب
فراكس فتعليبات
فذاذ نرقين فالقليب
فعمرة ففتار حبر
ليس بها منهم عريب
ويدلت من أهلها وحوشا
وغيرت حالها الخطوب
أرض توارثها الجدوب
فكل من حلها محروب
أما قتيلاً وأما هلكاً
والشيب شين لمن يشيب

فهذه الأرض ليست أرضاً بعينها ، وإنما هى
أرض البشر كلهم بمن فيها وعليها ، ويفجع الشاعر
بهذا الفناء العميم الرهيب ، فيكى بكاء شديداً مرة ثم
يستفيق من فجيعة ليجد نفسه مستغرقاً فى هذا البكاء
المر ، فيجسد موقفه واحساسه المأسوى بالفناء فى
هذا المولوج :

عينك دبوعها سرروب
كان ثائيهما شعيب
واهية أو معين معش
من هبة دونها لهوب
أو نلج واد ببطن أرض
للهاء من تحتة فسب
أو جدول فى ظلال نخل
للهاء من تحتة منكوب

ولكن هل يستويان في الميزان ؟ هل تستوي الحياة
والفناء ؟

هل يستويان في القيمة والدلالة ؟ ان الشاعر رغم
احساسه العميق لسطوة البلى ، و سطوة الدهر الدوار
على الحياة والاحياء ، لا ينكر نمرة هذه الحياة ولا
ينكر قيمتها العظيمة ، (وهنا نجد انفسنا امام سمة
من سمات الفكر العربي الاصيله وهى التمسك بقيمة
الحياة رغم مظاهر الفناء الشامل) ان هناك معنى
الحياة ، وقيمة للتعبير رغم الفناء الشامل الذى يستولى
عليها فى النهاية ، ذلك ان هذا الفناء لا يلغى قيمة
الحياة ، ولا يحيلها الى عبث مطلق ، فالحياة فى ذاتها
قيمة لا يمكن نكرانها ، بل لا يمكن انكار تفوقها
واستعلائها على سطوة الفناء وجبروته ، ذلك ان الحياة
تتمثل فى هذا الانتصار الدائب على العدم ، وهى تتمثل
اساسا فى هذين العنصرين اللذين تقدم بهما ، واللذين
يعطيانهما قيمتها واستمرارها وتجدها فى نفس الوقت
وهما : عنصر الخصب وعنصر النجاح ، فليست
انماقر (رمز الجذب) كذات الرحم اى الولود (رمز
الاستمرار والخصب والتجدد) ، وليس الخائب فى
الحياة (رمز الاحباط والفشل والجهد المهدر) مثل
الغانم (رمز النجاح والانتصار وتحقيق الحياة) فى
هذه اللحظة التى يصل فيها الشاعر الى استخلاص
قيمة الحياة من كل مظاهر الدمار الشامل ، يستولى
على وجدانه ايمان عميق بالله الذى هو الضمان
الحقيقى لانتصار الحياة المستر على سنة الخراب
والدمار ، ذلك ان الله يمثل فى يقين الشاعر البقاء
وراء عالم الفناء ، والثبات وراء عالم التغير ، واليقين
وراء عالم التلقؤ والشك ، والخير الباقى وراء مظاهر
العرض الزائل وبصدرا ابديا لانماضة صور الحياة
والخير والتجدد على الحياة والاحياء (وهنا ايضا نجد
انفسنا امام سمة اساسية من سمات الفكر العربى ،
وهى الايمان العميق بالله ، بالذى يعطى الحياة
قيمتها التى لا تتمثل فى هذه المظاهر المادية المتغيرة ،
وانما تتمثل فى قيمها الباقية ، التى سندرسها فى مبحث
الاخلاق وهى المكارم والفضائل واخلاق المروءة ، وهى
قيم باقية عندهم لا يلحقتها الفناء ولا الزوال ، يوصى
بها الآباء الابناء ويحرص الابناء على التمسك بها
وتوريثها لمن بعدهم) ، يقول عبيد فى ذلك :

من يسأل الناس يحرموه
وسائل الله لا يخيب

بالله يدرك كسل خير
والقول فى بعضه تلييب
واله ليس له شريك
حلام ما اخذت القلوب

فلا داعى للجزع امام مظاهر الفناء لان الباقى
فيه خير عوض ، يعطى من يسأل ، ويمنح الخير لمن
يعتد عليه وليس احد غيره يفعل ذلك لانه ليس له
شريك فى تصريفه ، وعلمه يصل الى خفايا القلوب
حيث مستودع الحاجات والامال والنوايا والمآثر هو
الذى يتعظ بالدهر ، ولا يجزع امام سلطانه ، ولا يفضل
فى نفس الوقت عن سطوته ، ان للحياة ثانيتها وهى
لا تسير بارادتنا واهوائنا ، فقد تتعكس النتائج على
المقدمات فيبلغ الضميف الى هدفه مع ضعفه وعجزه ،
ويقصر القوى من بلوغ هدفه مع قوته وحيلته ، وقد
يخدع الاريب الذى يفهم ويحسن التقدير وينجح الغيب
الذى لا يفهم ولا يحسن التقدير ، وذلك لاسباب
لا نعلمها لاننا لا نعلم كل الاسباب ، وهى
لا تخضع لمشيئتنا ، وجهلنا بالاسباب ، لا يعنى انها
غير موجودة ، ومن تجاهلها لا ينفعه التجاهل ، لان
آثار عملها واضحة فى الكون وعلى مر العصور ، وان
يفلت من سلطانه لان احدا تبلة لم يفلت به ولكن القلوب
مع الاسف تعمى عن ادراك الحقائق المائلة ، فلا تنتفع
بالآيات الشاخصة للعبان ولا تعتبر بما جرى به الدهر
على غيرها ، ومن عمى قلبه عن رؤية الآيات الواضحة
فلن يفهمه وعظ الواعظين ، لان من لا يستطيع النظر ،
لا يؤثر فيه الخير ، ذلك لان سجييات القلوب وطبائعها
هى التى تتحكم فى يتظة الانسان وغفلته فمن طبعت
سجيته على الغفلة لا يتيقظ ، ومن طبعت سجيته على
اليقظة لا يحتاج الى واعظ ، ونحن لا نعرف شيئا عن
سر هذه القلوب لانها تقاوجنا احيانا بعكس ما نتوقع
منها فتحب من يجب ان تكرهه ، وتكره من يجب ان
تحبه بلا سبب واضح معقول ، وهذا يعنى اننا
لا نجهل فقط الاسباب التى تدور بها الحياة حولنا ،
والتي ينجح بها الضميف ويخيب الاريب ، دون سبب
واضح معقول ، وانما يجهل ايضا هذه الاسباب
الخفية فى قلوبنا نحن ، واذا كنا لا نفهم ذات قلوبنا
فكيف نفهم سر الحياة الملتزم من حولنا . ان عاينا ان
نفهم سنن التبدل والتغيير تعمل وان لم نفهم سرها فى
قلوبنا ذاتها واذن فسنننا هامة شاملة ، فعلىنا ان
نعمله فى كل مكان ولكل الناس ، ولا نحاول ان نكون

منطقتين دائمتا في كل تصرفاتنا لان الحياة لا تخضع
 للمنطق كما نعرفه ، وانما نتصرف بمنطق خاص بها
 اسبابه مجهولة لنا ، فلا يقل احد مثلا اذا كان غريبا
 في ارض غريبة ، ولماذا اساعد الاغراب الذين لا
 تربطنى بهم صلة ، لان المساعدة لا تكون الا للاهل
 والاطرباء والذين نعرفهم . ان هذا منطق قاصر عن
 الادراك الشامل لسنن الوجود في ربط الاسباب
 بالمسببات ، فلنساعد كل من يحتاج الى مساعدة لانا
 لا نعلم من هو القريب ومن الغريب ، ومن هو العدو
 ومن هو الحبيب لانه لا يقين قط في هذه الحياة ، وانما
 المشاهد بالتجربة هو العكس فالمرء ما عاش يفاجأ
 كل حين بخطأ ما ظنه صوابا ، ويباطل ما ظنه حقا ،
 اذ كثيرا ما يعتقد في صحة صداقة او عداوة ، او
 خلق في احد من الناس ثم تاتي الايام فتعكس ظنه ،
 وتكذب اعتقاده ، وما طول الحياة للانسان الا زيادة
 عنائه وشقائه ، ومرة اخرى تعلق نبرة التشاؤم ،
 وتغلب المرارة على نفس الشاعر امام جهلنا الفاضح
 بأسلوب نصريف الحياة الغامض ، وهذا ما يقوله
 الشاعر في ابياته الآتية :

افلح بما شئت قد يبلغ
 الضمير وقد يخدع الارب
 لا يمظ الفاس من لا يعظ
 السدهر ولا ينفخ الطبيب
 الا سجيئات ما القلوب
 وكم يصيرن شائنا حبيب
 ماعد بأرض ان كنت فيها
 ولا تقل انتى غريب
 قد يوصل النازح النائي وقد
 يقطع ذو الهمة القريب
 والمرء ما عاش في تكذيب
 طول الحياة له تعذيب

وفي المقاطع التالية من القصيدة يؤكد الشاعر
 يقينه في سنة التبدل التي لا تتخلف من واقع تجربته
 الخاصة ، ومن واقع تجربة احياء غير انسانيين لتأكيد
 شمول سنة الفناء الذي يأتي دائما على الحياة مع كل
 الحيلة ومع كل المحاولة فيقول :

يسا رب ماء وردت آجن
 سبيله خائف جديب

ريش الحمام عاسى أرجائه
 للقلب من خوفه وجيب
 تطعته غدوة مشيها
 وصاحبى بادن خبوب
 غير انه يوجد قفارها
 كان حاركها كتيب
 اخلف بازل سديس
 لا خفة هي ولا ينوب
 كأنها من حبير غاب
 جون بصفحته سدوب
 او شيب يرتمى الرخامى
 تاطه شمال هبوب
 نذاك عصر وقد ارانى
 تحلانى نهدة مرحوب
 مضير خلفها تغييرا
 ينشق عن وجهها السيب
 زيتية نائم عروتها
 ولين ارسرها رطيب
 كأنها لقوة طلوب
 تيس في وكرها القلوب
 باتت على ارم عذوبا
 كأنها شيخخة زقوب
 فأصبحت نى غداة قر
 يسقط عن ريشها الغريب
 فامبرت ثعلبا سرعيا
 ودوته سبب جديب
 فنفضت ريشها وولت
 وهى من نهضة قريب
 فاشتال وارناع من حسيس
 ومثله يعمل الذوب
 فنهضت نحو حثينا
 وحررت حررة تسيب
 ندب من خلفها ديبيا
 والعين حلاقها مقلوب
 فأدركته فطرحته
 والصيد من تحتها مكروب
 فجذلته فطرحته
 فكدمت وجهه الجبوب
 فمادرتة فسرفعتة
 فأرسلته وهو مكروب
 يصفو ومخالبها نى دمه

لابد حيزومه منقوب

وهكذا انتهت القصيدة بهذا المشهد الفاجع المفاجيء ، ذلك أن مشهد الناقة الذي يأتي عادة بعد مشهد المتدبة تجسيد للارادة المتطاقة نحو هدفها بتصميم ، يأتي في آخر هذه القصيدة معدولا عنه الى مشهد القوة الرقوب كان الشاعر نسيه او تناساه ، وهذا من اعتد الاساليب التي تبرز بها الشاعر القديم (الجاهلي) الى حد الإعجاز فقد جرى استعمال الناقة في الشعر القديم (الجاهلي) رمزا لارادة الشاعر المصمم على الوصول الى هدفه ، والذي لا يصرفه صارف عن ارادته الماضية في تحقيق الحياة على شرط رغم ما يشاهده من سطوة مظاهر البلى على الحياة، لان ركوب الناقة يأتي دائما بعد الوقوف على الاطلاع وحديث الذكريات التي ذهبت وذهب اصحابها وطواها الزمن السيار ، ان الشاعر وان كان يعتبر بالفناء والتبدل الا انه لا يسمح به بأن يلويه عن عزمه لانه يرى الحياة دعوة أخرى من الفناء ، ويرى فيها صورة أخرى وراء صورها المادية الزائنة هي صورة الحياة التي لا تبلى وهي حياة المكارم والامجاد ، ولكن عبيدا هنا يواجنا بالناقة في مشهدين متتاليين كلاهما غريب، أحدهما وهو الاول يبين عبث الجهد المبذول ، والثاني يستغرق تماما في مشهد يطويه هو مشهد القوة التي ترمز الى الدهر اذوار والزمن السيار ، وكأنه يقول : مهما حاولنا او جهدنا ومهما كانت قوتنا فالزمن يفلبنا ويطوينا ويضربنا ضربه انحنية مهما بذلنا في حبال الابهال .

في مشهد الناقة الاول تصبح الناقة رمزا مأسويا يعين على تعميق الاحساس المهول بالفناء ويعيش المحاولة والجهد ، اذ نجد فيه الناقة القوية (رمز الارادة القوية) تقطع واديا مخوفا الى ماء آجن سبيله خائف جديب ريش الحمام على أرجائه .. رموز متتابعة للتغير المفضى الى الفناء . والشاعر لا يعرض هنا صورا من شجاعته واتدابه وقدرته على تهر الصعاب والمخاوف وانما يجسد لنا رهبة لهذا الوادي (القلب من خوفه وجيب) وهو يقطعه (مشيحا) ، انه رمز لوادي الحياة نفسه ، ذلك الوادي المخوف المملوء بالمخاطر ، والذي لا أمن فيه ولا راحة . وبعد هذا المشهد المخوف ، يأتي لنا ذلك المشهد النطيع الذي يعرى الحياة ، ويعرى فيها هذا الجانب الشاري ، اذى يفتك فيه القوى بالضعيف ، والذي يرمز اساسا

الى فتك الدهر بالاحياء الضعاف ، وبدلا من أن يجسد الرمز التالي على الناقة قوة الناقة كما هو الشائع المألوف في الشعر القديم (الجاهلي) جاء رمزا للقوة (العتاب) فابتلع الناقة (التي ترمز للارادة الانسانية) كما يبتلع الدهر حياة الاحياء والتي يرمز لها (الثعلب) ايضا ، وفي هذا المشهد يملا الشاعر احساسنا بالفرع والرعب فالقوة (طلوب) لا يفوتها صيد تطلبه ، وما تطلبه مالك لا محالة ، وقد امتلا وكرها (بالقلوب اليابسة) لضحاياها الكثيرين ، وهي تجلس جامسة مغزعة (كأنها شيخة رقوب ..) ، وقد اوقع الحظ النكد تحت بصرها في ليلة باردة ذلك الثعلب المسكين في أرض خلاء مبسوطة لا ملجأ فيها ولا مهرب ، فلما ابصرته نفضت ريشها غارتاع الثعلب من حسيبها وحاول الهرب فلم تعجل تنسه وراءه لانها واثقة انه لن ينلت (فنهضت نحوه حينئذ) في صورة مرعبة « وحردت حردة تسيب » فأدرك الثعلب الفرع (ودب خلفها دبيبا والعيير حملتها مقلوب) ولكنها أدركته فطرحته وهو مكروب ثم عاودت فجدلته فطرحته فكذحت وجهه الجيوب ثم عاودت فرفعته فأرسلته وهو مكروب . ثم انشبت فيه مخالبها فأخذ يصفو من الالم ويحاول التخلص ولكن هيهات (لابد حيزومه - صدره - منقوب) :

نهاية مفاجئة لمشهد مرعب يسدل عليها الستار ، وتنتهي بها القصيدة . !! وقف الشاعر في اول القصيدة يتأمل آثار الفناء ، وانتهى بمرض هذا المشهد المروع للنهاية المحتومة للاحياء ، وعبر رحلة القصيدة عرض لنا الشاعر الفناء في صورته المتعددة ، وعبرة التغير فيه ، ثم استعلاء الحياة كتيمة رغم حتمية الفناء ، تناقضاتها التي هي تفسير لها . داعيا الى بذل الخير والمعروف لانه القيمة الحقيقية الباقية في عالم التناقضات (التكذيب) ، متخذاً من ايمانه بالله تفريحا لحقبة اليأس التي يمكن أن تستحكم شمول سنة البلى والفناء والاحباط ، داعيا الى التبصير ، وأخذ العبرة ، وعدم الاتخاذ بالمظاهر مؤكدا درامية النهاية في أن التبدل وزوال الحياة هو سنة الوجود الذي يحكمه الدهر الدوار والزمن السيار .

الحبيسة :

على الرغم من هذا الإدراك العميق لتعاقب الحركة المتمثلة في الدهر أو الزمن وفي لزوم التغير

والتبدل والفناء ، على الرغم من ذلك اخذ العرب الحياة بقوة وعزم واتجال ، والذي يتأمل تركيب القصيدة الطللية يلاحظ ان القسم الثاني منها هو الركوب (الناقة غالباً او الفرس) ويبدأ مشهد الركوب عادة بما يؤكد ان الشاعر محمى على تحقيق ارادته ما دام الوقوف على الماضى الذاهب لا يعيده الى الحياة ولذلك جعل الناقة رمزا لهفته وعزيمته القوية التي يحتق بها هدفه في الحياة .
يقول طرفة بعد مشهد الوقوف وذكرياته نسي المعلقة :

وانى لامضى الهم عند احتضاره
بموجاء مرقال تروح وتفتدى

ويقول لبيد في المعلقة بعد مشهد الاطلاع وذكرياته

فاتطع لبانسة من تعرض وصله
ولشر واصل خلة مراتها
واحب المجامل بالجزيل وصرمه
باق اذا ظلمت وزاغ توامها

ويقول النابغة في المعلقة بعد مشهد الاطلاع :

نعد عما ترى اذا لا ارتجاع له
وانم القنود في عبرانة اجد

ويدعو امرؤ القيس في شعره دعوة قوية الى التمتع بالحياة لانها فانية ومن ذلك قوله :

تمتع من الدنيا فانك فان
من النشوات والنساء الحسان (5)

ويدعو طرفة الى اخذ الحياة بقوة ، واقتحام المخاطر ، والتمتع باللذات فيقول في معاقته :

الا ايهدا الملائمى احضر الوغى
وان اشهد اللذات هل انت مخدى (6)
فان كنت لا تستطيع دمع منيتى
فدعنى ابادرها بما ملكت يدى

وقد بذل العرب جهودهم لتحقيق الصورة الثانية

وهي الصورة التي تصورها باقية لا يلحقها الفناء والتمثلة في المكارم ، والتي سنتحدث عنها تفصيلا في بحث الاخلاق ، ذلك لان ملاحظتهم ، لسنة التغيير ، يزوال الحياة ، وقصر العمر ، وذهاب الشباب والغنى ، دفعهم الى التماس قيمة باقية للحياة في عالم المتغيرات ، ولما لم تكن لهم عقيدة في البحث او الحياة الآخرة ، فتد دفعهم ذلك الى التماس قيمة الحياة في الحياة نفسها ، اى قيمة تستمضى على الباقى ، ولذلك نراهم يضحون بالحياة الزائلة من اصل هذه الحياة التي تصورها خالدة ، اى انهم قالوا بالخلود على طريقتهم اى الخلود في صالح الاعمال ، وعظائم الامور التي يتحدث بها الناس بعد موت اصحابها ، والتي راوها جديرة ببذل الحياة من اجلها ، اى طلب الموت من اجل الخلود بالذكر ، رايانهم يخافون السبب والعار اكثر مما يخافون الموت ، يقول الشنفرى :

اذا ما اتنى ميعة لم ابالها
ولم تخر خالاتى الديموع وعمتى
الا لا تعدنى ان تسكيت خلتنى
شفانى باعلاذى البريقتين عدوتى
وانسى لظرو ان اريدت حلاوتى
ومر اذا نفسى العزوف استبرت
ابى لما أبى سريع مبادتنى
الى كل نفس تنحنى في مسرتى (7)

ويقول نابط شرا :

سدد خلاك من مال تجمعه
حتى تلاقى الذى كل امرى لاق
اتقرعن السن من ندم
اذا تذكرت يوما بعض اخلاق (8)

ويشول عمرو بن الورد :

اقلنى على اللوم يا ابنة منخر
ونامى فان لم تشتبهى النوم ناسهرى
فزينى ونفنى ام حسان اننى
بها قبل الا املك البيع مشترى
احاديث تبقى والفنى غير خالد
اذا هو امسى هامة تحت صير (9)

العالية والاتفاق والحرية :

تدردوا ذلك الى الدهر « فقالوا ريب الدهر ، ويد الدهر » . فان ذلك لا يعنى انهم عبدوا الها اسبه الدهر كما توهم جواد على (10) ، وانها ذلك يعنى فى ضوء كل ما ذكرناه انه قد جرى به الدهر ، وقد صور امرؤ القيس هذا الاتفاق (الصدفة) فى الحظوظ الذى لم يفهموا اسبابه تصويرا منفصلا فى قوله : (11)

من هنا لى من صديق فليعد
ليعدنى انسى اليوم كمد
من خطوب تركنتى قلنا
قلق المحور يالكت المد
بيتنسى بهوم شرع
خست نوى واخذنى السهد
ليت شمري ولليت نبوة
اين صار الروح اذ بان الجسد
بينها المرء شهاب ناقب
ضرب الدهر سنهه فخذ
يخدع الجسد ويؤدى جهرة
ويقود المسوت للحين الاسد
وابينا المرء يهوى قدما
انسد الدهر غناه ففسد
وبجهد يتففس عيشه
عاضه الدهر ثراء فمجد
لا يضر العجز ذا نجد ولا
ينفع المحروم ايضاع وكد
ناعم فى اهله ذو غبطة
ومناص عيش سوء فى كبد
ركب اللج الى اللج الى
غمزات البحر ذى الموت الاشد
حين ارسى كل من يعرفه
وارتمى الاذى منه بالزبد
عاجز الخيلة مستمر القوى
جاءه الدهر بمال وولسد
ولبيب ايد ذو حيلة
محكم المسرة مأون المعقد
حصنه الدهر وغطى حزمه
وانتصاه من عبيد وسبد

الحرية :

على ان الايمان بتقدير الله وتدبيره ، وبفطر

تخلص من كل ما سبق الى ان العرب قد ادركوا للوجود فى مختلف ظواهره وجودا وعدبا وتغيرا ونموا الخ ، عللا واسبابا ، وان العالم لا يقوم على الاتفاق او المصادفة ، وانهم ميزوا بين نوعين من العلل هى :
علل الخلق والتدبير ، وعلل الضرورة والطبيعة .

1 - علل الخلق والتدبير :

فالعالم كله مخلوق ابتداء وعلى مثال سابق من العدم باذن الله ومشيئته ، فهو اذن حادث فى الزمان من عدم محض ، ولم يسألوا كيف ومتى ، لانهم لم يروا فى ذلك مشقة على الله التادر على كل شىء والذى يخلق بحض المشيئة يقول للشىء كن فيكون ، ولم يجدوا عندهم فى الكيفية علما يقولون به ، لانهم لم يشهدوا الخلق ، ولم يروا ذلك مستحيلا فى عقولهم لانهم لم يدعوا لها علم المطلق والكلى ، او الاحاطة بالغيب ، والعالم لم يخلق مرة واحدة ولكنه يخلق اطوارا ، وخلق الله دائم ابدا ، متجدد ابدا ، والعالم مدبر بالله ابدا ، لا يستغنى عنه بضرورة ، ولا طبيعة ، ولا ما شابه ذلك .

2 - علل الضرورة والطبيعة :

والمخلوقات مفضورة على طبيعة وشكل وصورة تنمو عليه ، وتحيا عليه وتلزمه فى وجودها ، ولكنها طبائع ونظر ليست من ذات نفسها وانما هى مما اودعه الخالق فيها ، فالضرورة من الله لا من الاشياء.

الزمان والدمر والحركة :

والزمان او الدهر (الحركة) هو محل التغير والتبدل والوجود والعدم ، والزمان لا يتغير الا على المجاز لا على الحقيقة ، فالاشياء تتغير فيه ولا تتغير به ، لان المتصرف هو الله . والاسباب منها معلوم ومجهول : ونحن لا نفهم دائها الاسباب التى تتغير بها الاشياء وتتغير لها الاشياء ، وكما قال عبيد ، هناك خائب يفنم ، وخامل يفوز بدون سبب ظاهر : واذن فهناك اتفاق او مصادفة فى الحظوظ ، ونسى النصيب ، لانها لا تخضع لسبب مفهوم واذا كانوا

ويقول الشنفرى :

دعيني وتولى بعدما شئت اننى
سيغدى بنعش مرة فأغيب (15)

لقد كانوا يؤمنون لا جهلا منهم بالقضاء والقدر
ولكن ايمانا منهم بالقضاء والقدر ، ولولا ايمانهم بالحرية
الانسانية لما اقدموا ولما دعوا الى العمل اذ كيف
يعدم المقيد والعاجز ومن لا يستطيع ؟
لقد جعل عروة لنفسه سهما كسهم المنية فهما
بما لفرسى رهان : الارادة والموت ، كل منهما يعمل
ويستبق ، وان كان بالموت هو صاحب الجولة الاخيرة ،
ولكن الانسان الماجد يظلم الموت لانه يخلف من المحامد
مالا يدركه البلى .

الوجود في الفلسفة اليونانية :

الطبيعىيون الاولون :

واولهم طاليس تلميذ على المصريين وتأثر بهم
كما تأثر بالبابليين ، وقال ان الماء هو المادة الاولى
والجوهر الاول الذى تتكون منه الاشياء كما قالوا ،
الا انه عزز رايه بالدليل . وقال بان المادة حية لان
العالم مملوء بالالهة المنبثة فيه . ثم انكسبندريس
رفض الاخذ بالماء كجوهر اول وفسر تكوين الاشياء
تفسيرا (آليا) اى بمجرد اجتماع عناصر مادية
وافترقتها بتاثير الحركة دون علة فاعلية متميزة ودون
غائية ، وقد اصطنع قصة كاملة في نشأة الوجود
وتطوره من المادة الى الاحياء فجعل التطور قانونا
علما تخرج به الاشياء من اللامتناهى ثم تنحل وتعود
اليه ويتكرر الدور الى مالا نهاية والمادة اللامتناهية
باقية غير حادثة ولا مندثرة . وقد مد الوجود الى غير
حد في المكان وفي الزمان . اما انكسيبانس فعاد الى
القول بالمادة الاولى وهى شئ محسوس متجانس
هو الهواء ، وان الموجودات تحدث فيه بالتكاثف
والتخلخل . اى ان المدرسة المظلية اعتبرت المادة قديمة
حية او متحركة بذاتها وتخللتها تتحول الى صور الوجود
المختلفة بهوجب ضرورة طبيعية اى قانون ثابت .
اما هرقليطس فقد قال بان الاشياء في تغير متصل
وان النار هى المبدأ الاول الذى تصدر عنه الاشياء
وترجع اليه ، والتغير صراع بين الامتداد ليطل بعضها

الاشياء وطبائعها ويعمل الدهر وسطوته . كل ذلك
لم يدفع بالعرب الى اليأس لانه لم يبلغ في تصورهم
الحرية ، ولذا نجد ان شعرهم كله دعوة الى الفعل ،
والشجاعة واقتحام المخاطر وبذل الاموال . وتحقيق
المطامح بالارادة والعزيمة والهمة التى هى محور
الشعر كما سبق القول بل ان الايمان بالله وقدرته
وتعريفه وسننه ونظرنه للاشياء جعلهم متوكلين لا
متواكلين ، لانهم قالوا : اذا كان كل شئ يجرى بقضاء
وقدر فلماذا الخوف من الموت وهو واقع لا محالة ؟
ولماذا الضيق بالمال وهو مال الله يعطيه من يشاء
ويمنعه من يشاء ، وبالإضافة الى النصوص التى
سجلها المعجم واننى رويتها لبعضهم فى بذل الحياة
من أجل المكارم نضيف بعض النصوص التى تؤكد
المعنى وتقطع فى نفس الوقت بان ايمان العرب قبل
الاسلام كان ايمان المتوكلين لا ايمان المتواكلين ، يقول
عروة بن السورد :

ارى ام حسان الغداة تلومنى
تذومنى الاعداء والنفس اخوف
لعل الذى خونتنا من ايماننا
بصادفه فى اهله المتخلف (12)

ويقول ايضا :

نرىنى اطرف فى البلاد لعلنى
اخليك او اغنيك عن سوء محضرى
فان ناز سهم للمنية لم اكس
جزوعا وهل من ذاك من متأخر
لكم خلف اديار البيوت ومنظر(13)
وان ناز سهمى كنفكم عن متاعد

ويقول ايضا :

ولله صلوك صفيحة وجهه
كضوء شهاب القابض المتصور
مطلا على اعدائه بزجرونه
بساحتهم زجر النبح المشهر
وان بعد الايامن اقترابه
تشوق اهل الغائب المنتظر
فذلك ان يلقى المنية يلقيها
حميدا وان يستغن يوما فاجدر(14)